أسلوب المتنبي

للأستاذ عبد الوهاب حمودة
المدرس بكلية الآداب

الأسلوب هو القالب الذى يُفرغ فيه الشاعر شعره ، والمنوالُ الذى ينسج عليه الكاتب كتابته ، والطابع الذى يطبع به الخطيب خطبته أو القاصُّ قصته وهو صورة من النفس ، ولون للذهن ، ومرآة للخُلُق ، بل هو كما قال بوفون : (Buffon) الأسلوب هو الرجل نفسه (Le style est l'homme même)

وقال القاضى الجرجانى فى كتابه الوساطة :

وقد كان القوم يختلفون وتتباين أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ؛ فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودمانة الكلام بقدر دمانة الخلقة ، فترى الجافىَ الجلف ، كزَّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى إنك لتجد صورته فى ألفاظه ، وسحنته فى لهجته ؛ قال كسرى لحاجب بن زرارة : « يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخورها ! » قال حاجب : « بل زئيرَ الأسد بصولتها »

فالشاعر إذن يطبع الكلام بطابعه ويلونه بشخصيته ويصبغه بأصباغ نفسه ، فأسلوب المتنبي هو المتنبي نفسه . فقد كان ألواناً وأنماطاً . تبعاً لحالات طبعه وأنماط حياته . وتنوع مزاجه

كان أبو الطيب كما وصفه الواصفون : رجلاً ملء العين . قوياً بديناً ، جسيماً خليقاً ، عادىَّ الخلق ، قوىَّ الأساطين ، وثيق الأركان ، جيد الفصوص ، فيه غرابة فى زيه . هذه هى أوصافه الجسمية

أما طباعه وأخلاقه فقد كان أبو الطيب بعيد الآمال ، كبير المطامع ، كثير الزهو بنفسه ، دائم الإعجاب بمواهبه ، وهو كما قال الحاتمى : قد التحف برداء الكبر

والعظمة ، يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وإن الشعر لا ينترف من عذبه سواه ، ولا يرى أحداً إلا وهو يرى لنفسه مزية عليه . وكان قليل الميل إلى الهزل والنزوع إلى اللهو والطرب ، إذ قلما يجتمع اللهو والألم فى النفس الكبيرة الطموح :

وغير فؤادى للغوانى رميّة ... وغير بنانى للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا إلا بهن لعاب

* * *

أفيقا ، خمار الهم بعضى الخمرا ... وسكرى من الأيام حبّبنى السكرا
تسر خليلىّ المدامةُ ، والذى ... بقلبىَ يأبى أن أسر كما سُرّا

وكان قد طمع فى الملك وجن به جنوناً ، وكان صريحاً لا يعرف المداراة ولا المداجاة ، حاد المزاج ، مرهف الحس ، سريع التأثر ؛ إذا غضب اهتزت أعصابه وثارت نفسه ، فأصبح كأنه زوبعة ثائرة ، أو بركان فائر ، أو نار مندلعة

وكان شجاعاً مقداماً ، عاش متبرماً بالحياة ساخطاً عليها ، حاقداً للوك عصره لأن الأيام لم تنله أمنيته . فالحياة فى نظره حرب ضروس ، علاقة الانسان فيها بالانسان علاقة المقاتل بالمقاتل ؛ والقوة فى نظره هى أصل الأخلاق والفضائل ، والسيادة هى غاية الحياة :

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئٌ إليها اللئام

* * *

فلا تحسبنّ المجد زقّاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة والبكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمع المرء أنمُلُه العشرُ

هكذا كانت أخلاق المتنبى : نزوع إلى الكفاح والنضال ، وبعد عن الضحك ، وطبع صريح لا يتحرك إلا لمناظر الفخامة والروعة ، ولا يسحر إلا بأبهة العظمة وشارات الصولة . وأكبر الظن أنه لم يعشق فى حياته حتى يذلله العشق ويخضد

من شوكته ، ويلين من شكيمته ، ويهذب من غروره ، ويسلس من قياده ؛ فبين أخلاق المتنبي وبين المرأة مجافاة ؛ وهو قد صرّح بذلك فى شعره حيث يقول :

وترى المروّةَ والفُتوة والأبو ة فىَّ كلُّ مليحة ضرّاتِها
هن الثلاث المانعاتي لذتي فى خلوتى ، لاالخوف من تبعاتها

فهذه الأخلاق وتلك الطباع ترى ماثلة فى أسلوب أبى الطيب شاخصة فى شعره . وإليها مرد جل محاسنه ، وعنها يصدر أكثر مساوئه

فأخلاق المتنبي أحد عوامل ثلاثة أثرت فى أسلوبه . والعامل الثانى هو البادية ؛ فالمتنبي ابن البيد والفيافى . من أفق البادية نبت أسلوبه ، وفى جو البادية نما خياله ، فهى أول مدرسة تلقى فيها تعاليمه ، وأول بيئة سطرت آثارها فى ذهنه ؛ عرضت عليه الحضارة طراوتها ونعومتها فلم تنزع به عن بدويته ولم تنسه حب باديته . والعامل الثالث دراساته

فقد عُرف المتنبي بأنه لازم أهل العلم والأدب ، وأكثر من غشيان دكاكين الوراقين ؛ فكان علمه من دفاترهم ؛ وقد رُزق حافظة قوية — وهى عماد الأديب —

قال أبو الفتح عثمان بن جنى : كان المتنبي يحفظ ديوان أبى تمام والبحترى ويستصحبهما فى أسفاره ويعجدهما ، فلما قُتل توزعت دفاتره ، فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس علىَّ وقد رأيت خط المتنبي وتصحيحه فيه .

فهو من حُفاظ اللغة ورواة الشعر ؛ ليس هذا فقط ، بل قد نظر فى كتب الفلاسفة والمناطقة ، لا سيما أنه فى جنب سيف الدولة ؛ حيث اتفق له هناك كلّ ما يعين على النبوغ ونضوج القريحة .

نجد كل ذلك مسجلاً مسطراً فى أسلوب شعره ، ونسيج بيانه . فأسلوب المتنبي فى جملته وتفصيله هو أسلوب القوة والعظمة ، والرجولة والفتوة ، لا أسلوب الضعف واللين ، والتوشية والرقة .

فلألفاظه دَويٌّ ومَضاء ، كأنها أشخاص حية تتحدث إليك وتنطق وعليها مهابة ووقار ؛ أو كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم للطراد .

وتراكيبه كأنها حصون من فولاذ أو قلاع من صوّان ، تقرأ شعره فتُحس

جلجلة الطبول وقصف الرعود ودوىّ المدافع وجرجرة السيول ، تملأ سميك ألفاظه ، وتفيض بشدقيك كلماته ، ونلمح من خلال ذلك شخصية المتنبي قوية للكفاح والنضال لا للاستخذاء والتمسح بالأقدام .

وهذا أثر من أخلاقه ولون من طباعه وظل من بداوته .

وأصدق ما يشاهد ذلك فى وصفه للمعارك ؛ وفخره بنفسه ومدحه لمن أحبهم وأخلص إليهم كسيف الدولة ، وفى أهاجيه النارية كهجائه لكافور ؛ حتى فى غزله ، فهو — على أنه غزل فنى صناعى — مملوء بالرجولة والعزم المسدد والنفس الأبية المنيفة .

وحتى فى المعانى التى يقلد فيها غيره يأخذها ويكسوها من بروده الخشنة وثيابه الصلبة .

قال أبو الشيص الشاعر :

لقد جرى الحب منى مجرى دمى فى عروقى

فقال المتنبى فى نفس طويل وباع واسع وألفاظ ممدودة :

جرى حبها مجرى دمى من مفاصلى فأصبح لى عن كل شغل بها شغل

وقال البحترى فى وصف القلم :

تمنو له وزراء الملك خاضعةً وعادةُ السيف أن يستخدم القلما

أخذ المتنبى الشطر الثانى فقال بعد أن نسجه على منواله ، وسكب فيه روحه الصاخبة :

حتى رجعتُ وأقلامى قوائلُ لى المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم

وقال دعبل فى أسلوبٍ لينٍ رقيقٍ غزلى :

لانأخذا بظلامتى أحداً قلبي وطرفى فى دمى اشتركا

وقال المتنبى :

وأنا الذى اجتلب المنيةَ طرفُه فمَنِ المطالَبُ والقتيلُ القاتلُ

وقال أبو نواس فى تواضع وهوادة :

سنة العشاق واحدة فاذا أحببت فاستكن

فقال أبو الطيب وملأ به الأفواه وهز الأسماع :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لايذل ويخضع

وقال أبو نواس :

وكنتَ بالدهر عيناً غيرَ غافلة بجود كفيك تأسو كل ماجرحا

أخذه أبو الطيب فقال :

تتبعَ آثار الرزايا بجوده تَتَبُّعَ آثارِ الأسنة بالقتل

وقال أبو تمام :

غَرَّبته العلا على كثرة الأهـــل فأضحى فى الأقربين جنيباً

وقال أبو الطيب :

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطني إن النفيس غريب حيثما كانا

وقال ابن المعتز :

وما يُنتقصْ من شباب الرجال يُزَد فى نهاها وألبابها

وقال أبو الطيب :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت منى ، بحلمى الذي أعطت وتجربتى

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

وقال أبو تمام :

قريب الندى نائى المحل كأنه هلالٌ قريب النور نائ منازله

وقال أبو الطيب :

كالشمس فى كبد السماء وضوءها يمشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وقال البحترى :

وإذا ما تنكرتْ لى بلاد أو صديق فانني بالخيار

قال أبو الطيب وخلع عليه من مزاجه وقوة روحه لباساً متيناً :

إذا صديق نَكِرْت جانبه لم تعيني فى فراقه الحيـــل

فى سمة الخافقين مضطرب ... وفى بلاد من أختها بدل

وقال البحترى :

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر

وأبو تمام :

لو سمت بقمة لإعظام أخرى ... لسعى نحوها المكان الجديب

فيقول أبو الطيب :

تحاسدت البلدان حتى لو انها ... نفوس لسار الشرق والغرب نحوكا

أما فى نسيبه وغزله فيقول :

أحيا وأيسر ما قاسيت ماقتلا ... والحب جار على قلبى وما عدلا

والوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً ... والصبر ينحل فى جسمى كما نحلا

لولا مفارقة الأحباب ماوجدت ... لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

بما بجفنيك من سحر صلى دنفاً ... يهوى الحياة وأمّا إن صددت فلا

والمتنبى فى غزله خضع للمؤثرات الثلاثة : الأخلاق والبادية والدراسات فأخلاقه صيرت غزله قوياً خشناً بعيداً عن الميوعة واللين والضعف والتأنث أما أثر البادية فى غزله . فانه درج فيه على مذهب شعراء البادية فهو القائل :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكل فصيح قال شعراً متيم

فلست ترى فى أضعاف نسيبه آثار نفس ذلها الهوى وأسقمها الحب ، فلا كبد حرى ولا قلب مقروح وإذا تغزل كان مثله الأعلى الفنى هنّ الأعرابيات البدويات :

من الجآذر فى زى الأعاريب ... حمر الحلى والمطايا والجلابيب

إن كنت تسأل شكا فى معارفها ... فمن بلاك بتسهيد وتعذيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وأما أثر الدراسات فى هذا الغزل فيكفى أن نعرف أنه غزل صناعى لا حقيق فهو فى جملته صور قد صورها قبله كثير من الشعراء فاختار أبو الطيب منها ما يلائم حياته : حياة رجل قائد حربى منكود الحظ سيئ الطالع تملوه الكآبة ويتملكه الحرمان

وهنا من الحق علينا لأبي الطيب أن ننصفه فنقول : إنه وإن كان في غزله مقلداً لكثير من الشعراء ، مردداً ما اعتادوه من صورهم : كتشبيه القوام بالغصن ، والوجه بالشمس أو القمر ، والشعر بظلام الليل — إنه مع ذلك له صور مخترعة فاتنة ، تدل على عبقرية وصفاء قريحة ، وذوق فني بالغ ، من ذلك قوله :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أيّ الظاعنَين أشيع
أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس تسيل من الآماق والسمُ أدمعُ

* * *

أراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

* * *

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب

* * *

عزيز أسامن داؤه الحدق النُّجْل عياء به مات المحبون من قبل
فمن شاء فلينظر إليّ فمنظرى نذير إلى من ظن أن الهوى سهل
وما هى إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت فى قلبه رحل العقل

على أن هذه المقدمة من النسيب التى صحبت المتنبي في كثير من قصائد المديح ، قد يتركها أحياناً ويستبدل بها مقدمة فلسفية من الشعر الغنائى يبث فيها أحلامه وتجاريبه وشكواه . يشاهد هذا الأسلوب كثيراً فى مدائحه لبدر بن عمار ، ولسيف الدولة ، ولكافور ؛ والآن لقد حان أن ننتقل القول على أسلوبه فى المدح ، وهو الباب الذى استغرق جل ديوانه . فأسلوب المتنبي فى المديح لم يكن أسلوباً واحداً ، بل هو عدة أساليب ، تبعاً لاختلاف المقامات وتنوع الحالات والأزمات النفسية التى كان يقع فيها

فتارة نجد أسلوبه فى المدح لا تبدو عليه دلائل التعظيم ولا أمارات الصدق ، بل هو مدح للضرورة الملحة والحاجة القاسية ، فيشيع فى هذا النوع المبالغة الممقوتة ، والتشبيه الممتهن ، والخيال المتكلف ، والفن المبتذل ، والمقدمات الغزلية ،

والتراكيب السقيمة المنتقدة : كما فى مدحه لجل من لقيهم فى أول أطوار حياته من أهل أنطاكية وحلب واللاذقية ومنبج ، من صغار الأمراء الأعاجم وضعاف الولاة والقضاة . وفى هذا النوع من الأسلوب يذكر نفسه ويفتخر بعظمته وربما كان نصيبه هو من المديح أكبر من نصيب الممدوح

وأحياناً نجده يقلع عن التقليد ويخلص للممدوح حيث وجد فيه مثله الأعلى الذى يتعشقه ، والرجلَ القويَّ الذى يتصوّره . وبعد أن كان فى أسلوبه الأول ومنهجه السابق يُنذر ويتوعد ويتكلف ويتصنع ، إذا به يقلل من التكلف ويكف عن التعقيد ؛ فيصبح الأسلوب مشرقاً ، والبيان مستقيماً متيناً ، يترك فيه المقدمات الغزلية وينسى الفخر بنفسه ، إلا إذا أحس دس الدساسين وسعاية الواشين . ومن هذا النوع مدحه لسيف الدولة ، فإنه قد بلغ فيه الذروة وسما فيه إلى القمة

وتارة نجده يتعمد أن يكون أسلوبه فى المديح مؤلماً ، فيصور آلامه ومصائبه ويصف دهره وأهله ، ويكشف عن نفسه وآمالها ، ويأتى بالأخيلة الخبيثة ، والمبالغات التهكمية ، والتصورات الخداعة ؛ فهو مديح أشبه منه بالهجاء ؛ وذلك كما فى مدح كافور . غير أن هذا الأسلوب سهل كله ، خلو من الركاكة والسقم وضعف النظم ، ويمتاز هذا النوع بخصوبة الحِكَم وضرب الأمثال . ولنكتف للتمثيل لذلك بما يأتى من قصيدة في مدح كافور :

إنما يفخر الكريم أبو المسـ ـك بما يبتنى من العلياء
تفضحُ الشمسَ كلما ذرَّت الشـ ـمسُ بشمس منيرة سوداء
إن فى ثوبك الذى المجدُ فيه لضياءٌ يُزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس ، وابيضاض النـ ـفس خير من ابيضاض القباء
مَن لبيض الملوك أن تُبدل اللو نَ بلون الأستاذ والسَّحناء
يا رجاءَ العيون في كل أرض لم يكن غيرَ أن أراك رجائى

وهذه أبيات من أخبث المديح وآلم الهجاء ، لأن ذا اللونِ الأسود ليس أمرّ عليه من أن تذكرَ له الألوان ، ولا سيما الأبيض منها . وبضدها تتميز الأشياء .

هذا هو أسلوب المتنبي فى المديح . على أن هناك أسباباً أخرى أتاحت لأبى الطيب الإجادة فى المديح وهو بجانب سيف الدولة :

(١) فانه فضلاً عن أن المتنبي وجد فى سيف الدولة الرجل العربيّ المستقل الذى يعظم العرب ويحاسن القرامطة الذين يميل أبو الطيب إلى مذهبهم وعقائدهم ، فأنه يتفق معه فى المبدأ ، وهو البحث عن المجد من طريق الحرب والقوة ؛ فوجد فيه المثل الأعلى الذى يصبو إليه ويهيم به .

(٢) ثم رأى أنه دخيلٌ على شعراء سيف الدولة وهم كثر ، فلا وسيلة للتغلب عليهم إلا من طريق الشعر وهو كل بضاعته ، فاهتم أن يجيد ، وتحركت نفسه للقول بعاطفة صادقة وشعور طبيعى للمحافظة على هذا الرغد من العيش والطريف من النعيم .

(٣) ثم كثرة عيون النقاد حوله ومنهم سيف الدولة نفسه ؛ وليس من الهين اليسير على نفس كنفس المتنبي أن تستسيغ النقد وتجيز التنقص منها وتنام على الحط من قدرها .

على أن شدة التحرى هذه وحمل النفس على الإبداع والاختراع والترفع عن الطيران فى جو الشعراء الذين حوله ، أوقعه فى التعمق والإغراب والإبهام والغموض لقصور الألفاظ واتساع المعنى .

أما فى الهجاء فله أسلوب واحد موجع ، ولسان مر ، تبدو فيه نفسه الثائرة وخلقه الصريح وشجاعته وعصبية مزاجه ، فلا يدارى ولا يصانع ، وهو صورة لأخلاقه إلا أنها عكسية مقلوبة ، إذ كان يهجو أعداءه بضد ما كان يمدح به أولياءه وبعكس ما يراه هو مثلاً أعلى للرجولة ، وصورة صادقة للفضائل ؛ فهجاؤه أظهر أثر للطبع والخلق والمزاج ؛ وهو صورة لصدق العاطفة ومرارة النفس المحرومة الحاقدة الساخطة . وقل أن تجد فيه تعقيداً أو ركة أو هلهلة فى النسج أو تكراراً فى الحروف مما عيب مثله عليه ، وهو متأثر فيه بأسلوب ابن الرومى من حيث ذكر النقائص الخلقية والصفات الجسمية .

أما أسلوب المراثى عند أبى الطيب فهو من الأساليب التى تحمل شارته وتلمح عليها توقيعه

فعادة الشعراء فى مراثيهم أن تفيض عيونهم بالعبرات ، وقلوبهم بالحسرات وصدورهم بالزفرات ، ونفوسهم بالأنين ، وألفاظهم بالدمع السخين ، كما فى شعر الخنساء مثلا أو ابن الرومى في رثاء ولديه .

أما شاعرنا في رثائه — وقد رثى عشرة أشخاص — فقد كان حزنه حزنَ فيلسوف ، وبكاؤه بكاء قائد حربى ، وألمه ألم متمرد ، وحسرته حسرةَ عظيم ساخط : ما خضع ولا ذل ، ولا استسلم ولا ضعف

هذا الأسلوب نجده فى رثاء من يهمهم أمره ويمتون إليه بقرابة أو صلة : كرثائه فى جدته ، وأم سيف الدولة وأخته وابنه ، فقد ملأ رثاءهم بالسخط على الحياة والتبرم بالدنيا وأهلها وبالحكم البالغة والوصف القوى

وله أسلوب آخر فى المراثى يظهر عليه التقليد والصناعة والضعف ، وفراغ القلب من الألم والنفس من الحزن ، وذلك لأول عهده بالرثاء ؛ فقد رثى ابن إسحق التنوخى ولم يبلغ عمره العشرين حينذاك بقوله :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تمور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفةٌ تكاد تمور

أما فى رثاء والدة سيف الدولة ، فاقرأ له :

نعد المشرفيّة والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال
نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

أما في حلبة الوصف فقد كان أبو الطيب مجلّيا ، ولا سيما فى وصف المعارك ؛ إذ كان لروحه وطبعه الأثر البالغ فيها ؛ فشعره فى وصف الحروب صورته الناطقة أو هو كما قال ابن الأثير :

إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للمسامع مقام أفعالها .

فتحس وأنت تقرأ شعره صدق الشعور والقدرة الفنية فى التصوير ، والافتنان فى الوصف ، والدقة فى الخيال

وليست إجادة أبى الطيب فى وصفه للمعارك فحسب ، بل هو قد أحسن فى وصف البادية كذلك : من صحارى وجبال ، وخيل ونياق ، ووفق فى وصف الحيوانات : من ظباء وكلاب صيد وآساد .

وهو فى هذه الأوصاف يظهر في أسلوبه أثر البادية أولا ، حيث شاع فيه الغريب من اللفظ ، ثم أثرُ ذهنه وحاسَّته الفنية ثانياً ، حيث رزق أبو الطيب دقة الملاحظة ، والمقابلة بين الأضداد والألوان . فما جاء فى وصف أسد في غيله وأجمته :

فى وَحدةِ الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحليل والتحريما
يطأ الثرى مترفِّقاً من تيهه ... فكأنه آسٍ يَجُسّ عليلا
ويَرُدُّ عُفْرته إلى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا

وله فى وصف ذقنِ الأيائل وهو نوع من التيوس الجبلية :

لها لِحًى سُودٌ بلا سِبال ... تَصْلُحن للاضحاك لا الاجلال
كلُّ أثيثٍ نبتُها متفالِ ... لم تُغْذَ بالمسك ولا الغوالى
ترْضى مِنَ الأدهان بالأبوالِ ... ومن ذكىِّ المسك بالدَّمالِ
لو سُرِّحَت فى عارضَىْ محتالِ ... لعدها من شبكات المالِ

ولنوازن بين وصف البركة للبحترى ، ووصفها للمتنبى حتى يبين لنا من هذه الموازنة مبلغ أثر البادية فى وصف المتنبي : يقول البحترى :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتُها ... والآنسات التى لاحت مغانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافِسها ... فى الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
كأن جنّ سليمانَ الذين ولوا ... إبداعَها فأدقوا فى معانيها
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً ... كالخيل خارجةً من حبل مُجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها وريقُ الغيثِ أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا ، حسبت سماء رُكبت فيها

هذه هى الأخيلة الحضرية التى تناسب حضارة القرن الرابع الهجرى .
والمتنبي يقول :

والموج مثل الفحول مزبدةً تهدر فيها وما بها قَطَمَ
والطير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلقٍ تخونها اللُّجُمُ
كأنها والرياح تضربها جيشا وغًى : هازمٌ ومنهزم
كأنها — فى نهارها — قمرٌ حفَّ بها من جنانها ظُلَم
فهى كماويَّةٍ مطوَّقةٍ جُرِّد عنها غشاؤها الأدَمُ

بقى أن نصف أسلوب أبى الطيب فى الحكم

أسلوبه فى الحكمة والمثل أسلوب سهل مشرق ناصع لا التواء فيه ولا اعوجاج وألفاظه موسيقية عذبة ، نجد فيه كثيراً من المقابلة بين الصفات يزيد فى جمالها الفنى ويكشف عن أغراضها ومعانيها ، وهو من صغره قد بدت فيه حاسة التعميم والتمثيل وصوغ المعانى فى صورة كلية موجزة مختصرة ، وأظهر شيء فى حكمه أنه صبغها بصبغة نفسه فصدرت وكأنها مراسيم ملكية من غير أن يمهد لها أو يسوق الحجج والأمثلة والشواهد على صحتها ؛ فهو يخالف المعرى فى ذلك ؛ فالمعرى يتردد ويكثر من الموازنة والتحليل ، أما المتنبى فيسوق حكمه فى لهجة قاطعة لا نقض فيها ولا إبرام ولا هوادة ولا دوران ، بل هو كالواعظ المتزمت يلقى على الناس عظاته من فوق منبره فى صرامة وحزم كما يصنع الأستاذ مع تلاميذه والشيخ مع مريديه اعتداداً منه بنفسه ووثوقاً منه برأيه . والسر فى خلود حكمته هو أسلوبها ، وما فى صياغتها من قوة وما فى بنيانها من متانة ، ولأنها عملية أو أكثرها عملى يصادفها الإنسان في حياته كل يوم ويلقفها من حوادث الأيام وعبر الزمان ، يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

* * *

خليلك أنت لا من قلت خلي وإن كثر التجمل والكلام

* * *

لا تعذُلِ المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه

* * *

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم

* * *

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

* * *

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

* * *

فاطلب العز فى لظى ودع الذلّ ولو كان فى جنان الخلود

وهو من قول الناس : النار ولا العار .

وانظروا إلى قول عنترة هذا المعنى عينه ولكن الصياغة مختلفة والأسلوب ليس واحداً :

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

فن المتنبي

المتنبي فنان مُبدعٌ ، ومصور ماهر ؛ فقد رزق دقة فى الحس ، وإرهافاً فى الأعصاب ، ورقة فى الشعور ، وقدرة على التصوير ، وخصوبة فى الخيال ؛ وهذه الخصائص جديرة بأن تخلق منه رجلاً فناناً

وفنه ممثل فى الأخيلة البديعة والموسيقى المدوّية ، وفي حسن التنسيق وجمال التقسيم ، والمقابلة بين الألوان

روى أبو الفتح ابن جنى قال : قرأت على أبي الطيب قوله :

وقد صارت الأجفان قرحاً من البكا وصار بهاراً فى الخدود الشقائقُ

فقلت : (قرحى) من غير تنوين ، فقال لى المتنبي : إنما قلت أنا (قرحاً) لأنى قلت

بمدُ بهاراً ، فهو إذن كان يقصد إلى هذا الجرس فى الألفاظ ، وذلك التقسيم فى الأجزاء ؛ ومن فنه قوله يصف ذكاء بدر بن عمار :

هان على قلبه الزمان فما ... يبين فيه غم ولا جذلُ
تعرف فى عينه حقائقه ... كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند اتقاد فكرته ... عليه منها ، أخاف يشتعل

وقوله يصف تمايل الرماح :

تبيتُ رماحه فوق الهوادى ... وقد ضرب العجاجُ لها رواقاً
تميل كأن فى الأبطال خمراً ... عُلِلْنَ بها اصطباحاً واغتباقاً

وفى هذه القصيدة يقول :

وخصر تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقاً

ومن التصوير المعجب قوله يصف نفسه بالألفة وأنه لو عاد شاباً لما هان عليه مفارقة الشيب إلا وقلبه موجع وعينه باكية :

خُلقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

ووصف موقف وداع وصفَ فنان مصور ، آلته حساسة صادقة الحس :

وجلا الوداعُ من الحبيب محاسناً ... حسنُ العزاء وقد جُلين قبيح
فَيَدٌ مسلّمة وطرف شاخص ... وحشاً يذوب ومدمع مسفوح

واخترع فأبدع في تصوير القلب وقد تواردت عليه الأحداث وتكاثرت عليه المصائب وتوالت فوق رأسه الرزايا حتى أصبح لا يحس ألماً ولا يبالى حَزَناً :

يقول الخزيمى :

لقد وقرتني الحادثات فما أرى ... لنازلة من ريبها أتوجع

وقال أبو الطيب :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقد وصف ضرب السيوف للرقاب ، وطعن الرماح للقلوب ، فقال :

كأنَّ الهامَ فى الهيجا عيون وقد طُبِعتْ سيوفُك من رقاد
وقد صُغتَ الأسنة من هموم فما يخطرن إلا فى الفؤاد

وانظر إلى تصويره الموت تصويراً لم يسبق إليه

وما الموت إلا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

أما الموسيقى فأمثلتها كثيرة منها :

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

***

فالموتُ أعذرُ لى ، والصبر أجمل بى والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبا

***

فقرُ الجهول بلا قلب إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسَن

***

فيا شوق ما أبقى ، ويا لى من النوى ويادمعُ ماأجرى ، وياقلب ماأصبى !

***

ضاق الزمان ووجهُ الأرض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل ، والروم فى وجل والبَر في شغل ، والبحر فى خجل

ولنقف من البيت الثانى من هذين البيتين وقفة قصيرة لنتبين ما فيه من صور متقابلة ، وأضداد متماسكة : الجذَل لهم والوجَل للروم ، والشغل فى البر والخجل في البحر لندى يديه

ولصُوره طابَع خاص تعرف به ، وذلك إنه أولع بالجمع بين الألوان المتضادة ، والصفات المتقابلة ؛ فهو كالمصور الماهر ، يصور الصورة باللون الأسود ، ثم يجلل حواشيها باللون الأبيض ، لتبدو الصورة زاهية زاهرة . أوَليست العيون التى فى طرفها حَوَر هي تلك التى اشتد سوادها ، واشتد بياضها فكانت قاتلة ساحرة ؟

قال يمدح سيف الدولة :

يا مليك الورى المفرِّقَ محيا ومماتاً فيهم وعزًّا وذلا
قلد الله دولةَ سيفُها أنت حُساما بالمكرمات محلَّى

فبـــه أغثتِ الموالىَ بذلا وبه أفنتِ الأعادىَ قتلا
وإذا اهتز للندى كان بحرا وإذا اهتز للردى كان نصلا
وإذا الأرض أظلمت كان شمساً وإذا الأرض أمحلت كان وبلا

والطابع الثانى : أن خياله أكثر ما تستمد أجزاؤه من الحروب والمعارك والأسنة والرماح والطعن والضرب

غير أن هذا الفن عند المتنبى هو من نوع واحد ولون مطرد ؛ إذ كله مستمد من حياة مظلمة الجوانب كامدة الألوان ليس فيها أثر للبشاشة ولا بريق للابتسامة . لهذا كانت روح أبى الطيب التى سُكبت فى هـذا الفن روحاً منقبضة مكافحة لم ترزق لطف مدخل ، ولا حسن احتيال ، ولم توهب رقة ملمس ولا نعومة مسّ ؛ بل هى تستقبلك بالرماح والنصال حيثما واجهتها ، وبالمناقل والحصون أينما صادفتها وبالزوابع والعواصف كلما لاقيتها ، وبالسخط والحنق أنى حادثتها وكاشفتها ؛ فضحكها غليظ خشن ، وصوتها مدوّ مفزع

وتركك فى الدنيا دوياً كأنما تداولَ سمع المرء أنمُله العشرُ

لذا كره كثير من الناس أسلوب أبى الطيب ، ونفروا من فنه وشعره ، وثقل عليهم ظله ، وغلظ عليهم طبعه . هـذا إلى أن شعره مستغرق فى نفسه مشحون بشئونه الخاصة ، ليس للإنسانية فيه نصيب ، ولا للعواطف المشتركة العامة منه قسط

وأغلب الظن أن الذى أفسد على أبى الطيب فنّه وبغّض إلى الناس جماله هى تلك العوامل الثلاثة : طبعه وبيئته ودراساته

أما طبعه فما فيه من عناد ، وما به من غرور ، قد حمله على ألا يهذب شعره ولا يقبل تنقيحه . وكبرياؤه عن التقيد بما يتقيد به الشعراء عادة ، وثورته على كل مألوف ، واحتقاره لكل تقليد ؛ ومزاجه النارى وأعصابه الملتهبة ، وشذوذه فى كل شىء — دفع به كلُّ هذا إلى أن يأتى بالكلمات كيفما اتفقت ، ويصوغ البيت فى أى صورة وقعت . وزيادة منه فى عناده للناقدين وأغاظته لعلماء اللغة والنحويين يعبث كما يشاء ، فيقدم ويؤخر ، ويحذف ويحشو ، فيقع فى تكرير الحروف المطردة النغم

ويرى بالقافية المقفدة يختصم فى فهمها الناس .

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وها هو مثل يثير الضحك ويمثل لنا عناده وغروره . قال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِع احْمِل عَلِّ سَلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشِّ بَشِّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

ولما أنشد هذا البيت رآهم يعدون ألفاظه فقال وزاد فيه :

أَقِلْ أَنِلْ أَنْ صُنِ احملْ علِّ سَلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشِّ بَشِّ هَبِ اغفرْ أَدنْ سُرَّ صلِ

فرآهم يستكثرون الحروف فقال :

عِشْ ابق اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نَل
غِظِ ارمِ صِبِ احْمِ اغزُ اسبِ رُعْ زَعْ دِلِ اُثْنِ نُل

أفبعد هذا شذوذ ووراء هذا حمق ؟

أما بيئته ، وأعنى البادية ، فهى صاحبة الأثر فى استخدام الألفاظ الغريبة والكلمات الخشنة النافرة التى لا تلائم ذوق القرن الرابع الهجري

أما دراساته فقد أوقعه تقليدُه لبعض الشعراء الذين أولع بهم فى الإغراب والتنقيب عن الوحشى من حكم الجاهلية والتورك على الصيغ الشاذة والتراكيب الجافة والتحذلق فى الأساليب ، والأكثار من الجناس والمقابلة . وأستاذه فى ذلك أبو تمام .

ثم دراسته للفلسفة والعلوم جمله يدخل ألفاظ المصطلحات العلمية فى الأساليب الشعرية ويستخدم التراكيب المنطقية . قال :

تخالف النـاس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيـل : تخلص نفسُ المرء سالمةً وقيل : تشركُ جسمَ المرء فى العطب

* * *

من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

* * *

ولا واحداً فى ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك الضعف
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وهناك هنات أخرى عرف بها أسلوبه نكتفى عنها بما ذكرناه

وأظهر الخصائص فى تراكيبه الإكثار من استخدام أسلوب القصر :

وماالدهر إلا من رواة قصائدى * إنما التهنئات للأكفاء * إنما تنجح المقالة فى المرء

وتفسير ذلك سهل ، فهو أثر من الوثوق بالنفس والاعتداد بالرأى ، أو صورة من صور المبالغة

والخاصة الأخرى استخدام التصغير فى أساليب الهجاء ، وهذه صورة لحنق النفس والاستخفاف والتهكم :

أولى اللئام كويفير بمعذرة فى كل لؤم وبعض العذر تفنيد

* * *

ونام الخويدم عن ليلنا وقد نام قبل عمى لا كرى

* * *

أذم إلى أهل الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وبعد فهل وفق المتنبي وأجاد ؟ نعم أجاد كل الإجادة فحاسنه تربى على مساوئه ، وجمال أسلوبه يزكو على قبيحه . إلا أن الذى أظهر تلك المساوئ وكبر من تلك الهفوات ، المتنبي نفسه ، فتعاظمه وكبره وغروره وتعاليه كثَّر من حساده فأخذوا يحصون عليه السيئات بحق وبغير حق ، ويجسمون الهنات منصفين تارة وغير منصفين أخرى

أما فى الحق والإنصاف فقد ظفر المتنبي الظفر كله بسلامة المعانى وجمال الخيال وقوة التراكيب ، وإن خلا من جمال التوشية ومحاسن التطرية ونعومة الحضارة :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

عبد الوهاب حمودة